

الشورى أو الإفتاء:

إن الشورى أو الإفتاء خطة مساعدة للقضاء في إصدار أحكامه. ولا يكون المشاور إلا فقيهاً مبرزاً⁽¹⁾، وعلى الرغم من أنه أقل رتبة من القاضي، إذ قد يرقى المشاور قاضياً⁽²⁾، إلا أنه يبدي رأيه في مسائل الأحكام وعليه اعتماد القاضي ويجلس معه في مجلس حكمه وربما كان تعيينه من قبل القاضي⁽³⁾.

العدالة أو الشهادة أو التوثيق:

وقد كانت هذه الخطة من الخطط المهمة في النظام القضائي الموحد فقد أوجب الخلفاء على القضاة إظهار شهود عدول في الإجراءات القضائية⁽⁴⁾. ويبدو أن الإظهار كان ضرورياً في حالة التولية والعزل، فقد كان من الضروري أن يشهد القاضي شاهدين إن أراد عزل أحد قضاة المدن الصغرى الذين بينهم⁽⁵⁾. ومن تراجم الرجال الذين قاموا بالتوثيق تبين أن ليس منهم إلا فقيه مبرز⁽⁶⁾. ويبدو أن عددهم كان كبيراً في العواصم الكبرى مثل إشبيلية إذ كان لهم رئيس أو كبير⁽⁷⁾. ولا يقوم الموثق بعمله إلا عن إذن القاضي⁽⁸⁾. ولم أعثر على ما يفيد أن عملهم كان من الخطط الرسمية التي ينال صاحبها راتباً من الدولة.

(1) راجع التكملة ج 1 ص 34، 44، 66، 71، 71، 86، 149، 209، 243، صلة الصلة ص 65، 95، 105، 147، 183، الذيل والتكملة ج 5 ص 235، 647، عنوان الدراية ص 147، 150، الديباج ص 354.

(2) صلة الصلة ص 183-184، الديباج ص 152.

(3) عنوان الدراية ص 147، 149، 150-151.

(4) المن بالإمامة ص 304.

(5) عنوان الدراية ص 18.

(6) برنامج شيوخ الرعي ص 113، 114، 115، 120، 134، 143، 146، 149، 150، 151، 163، اختصار القدر ص 69، الذيل والتكملة ج 4 ص 67، 124، ج 5 ص 21، 76، 132، 154، 195، 240، 525، 540، 542، 543، 575.

(7) برنامج شيوخ الرعي ص 126، الذيل والتكملة ج 5 ص 310، الديباج ص 53.

(8) العبر ج 1 ص 402.

النظر في المظالم:

كان الخليفة يعتبر السلطة القضائية العليا. فقد كان قضاة الولايات يرفعون إلى الحضرة الحدود وكان ينظرها قاضي الجماعة تحت نظر الخليفة ومراقبته. وقد ساعد علم خلفاء دور الازدهار في أحكام المراقبة وتبعية الأحكام⁽¹⁾، ووجد الخلفاء في الهيئة العلمية المكونة من «طلبة الحضرة» خير معين في مناقشة القضايا المستجدة التي تتطلب نظراً واجتهاداً⁽²⁾. وكان النظر في المظالم من اختصاص الخليفة، فهو ينظر فيما يرفع إليه من قضايا⁽³⁾ ويفصل في ظلمات الناس بنفسه في المسجد⁽⁴⁾ أو في قصر الحجر مقر الخلافة⁽⁵⁾ أو في أثناء نزوله بمدينة إذا خرج لغزو⁽⁶⁾. ومنذ خلافة المنصور خصص الخليفة أياماً معينة للنظر في المظالم⁽⁷⁾. وكان الناس يقدون على الحضرة بظلاماتهم⁽⁸⁾ أو يكتبون إلى الخاتم عنها، فقد كتبت امرأة شلبية إلى المنصور تتظلم من ولاة بلدها وصاحب خراجها⁽⁹⁾ فأنصفها المنصور.

وذكرنا في حديثنا عن القضاء أن الخليفة قد يوكل قاضي الجماعة النظر في المظالم. ويبدو أن الولي الذي يعين بسلطات استثنائية كان ينظر في المظالم أيضاً. روى الزركشي أن الشيخ أبا محمد عبد الواحد الحفصي - الذي ولّاه الناصر إفريقية على أن يكون مطلق التصرف - «كان يجلس كل يوم سبت لمسائل الناس»⁽¹⁰⁾.

(1) راجع عن علم خلفاء دور الازدهار الفصل الثاني.

(2) الذيل والتكملة ج 5 ص 62، عنوان الدراية ص 121.

(3) اختصار القدر ص 127.

(4) المن بالإمامة ص 420.

(5) المعجب ص 285، البيان المغرب ج 3 ص 144-145.

(6) البيان المغرب ج 3 ص 158.

(7) المعجب ص 285.

(8) الذيل والتكملة ص 241.

(9) نفع (ط. محي الدين) ج 6 ص 29.

(10) تاريخ الدولتين ص 18.

الحِسْبَةُ:

لقد كانت الحسبة من الخطط التي تتعلق بأعمال القضاة ولقد عرف العرب في المشرق والأندلس الحسبة من خلافة الأمويين، وحرى بالذكر أن العرب أخذوا هذه الخطة عن «صاحب السوق» في المدن اليونانية بعد أن نشر اليونان هذه الخطة في الشرق الأدنى إثر استيلائهم عليه، ثم مرت الحسبة عند العرب بمحاولات الفقهاء لتصنيفها وترتيبها وتحديثها وقد أرجعوا جذورها إلى عصر النبي ﷺ⁽¹⁾. وفي الأندلس كان يطلق على المحتسب «صاحب السوق» وكان منصبه ذا أهمية كبرى، ويدل على ذلك الكتب التي صنف في أواخر العصر المرابطي والتي بيّنت الشروط الواجبة فيمن يتولى الحسبة كما حددت واجباته، فصنف كل من أبي عبد الله محمد بن أحمد السقطي ومحمد بن أحمد ابن عبدون الإشبيلي في أواخر العهد المرابطي رسالة في الحسبة⁽²⁾، وخلف كل من ابن عبد الرؤوف وعمر بن عثمان الجرسيفي رسالة فيها والراجح أنهما من معاصري السقطي وابن عبدون. ولئن عرفت الأندلس الحسبة والمحتسب فليس هناك ما يؤكد أن المرابطين قد أخذوا الخطة عن الأندلس إلى المغرب. فهل اتخذ الموحدون الحسبة خطة؟

هناك إشارتان وردت فيهما كلمة المحتسب والإشارتان ترجعان إلى الفترة السابقة لفتح مراكش فالإشارة الأولى أوردها ابن القطان في روايته عن انسحاب جيش الموحدين المنهزم من مراكش إلى تينملل سنة 1130/525 فقال أن عبد المؤمن لما خشي غدر هزرجة «عين... خمسين رجلاً محتسباً وأمرهم أن يسبقوا إلى الفج» قبل أن تحتله هزرجة⁽³⁾. وكلمة «محتسب» هنا لا تعني إلا بيع النفس إلى الله. وأما الإشارة الثانية فقد أوردها صاحب كتاب الأنساب في روايته

(1) الحسبة والمحتسب ص 31-32.

(2) المصدر ذاته ص 56-58، Hopkins; p. 136.

(3) نظم الجمان ص 121.

عن «أصناف الموحدين» فيسمى «صنفاً» من هذه الأصناف «المحتسبين» ويقول «المحتسبون وفقهم الله لهم من القبائل إحدى وعشرون لكل قبيلة مزواران مزوار للقدم أعني الموحدين الأصليين ومزوار للمضاف منهم»⁽¹⁾ وقد جاءت كلمة محتسب هنا مرادفة لكلمة مزوار وهو الرئيس، وربما كانت تعني القائد العسكري للمجموعة القبلية، وربما أطلق الموحدون على مثل هذا الرئيس أو المزوار لقب المحتسب في بداية الأمر بسبب ما علّقه على فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهمية في دعوتهم، وفي هذه الحالة ربما كان هذا الرئيس يشرف على درجة تطبيق جنده لتعاليم المهدي. ومن الراجح أن الموحدين لم يعرفوا الحسبة والمحتسب في دور التأسيس بالمعنى المعروف في مختلف النظم الإسلامية، ولكن عرفوا وظيفة الحسبة الأساسية وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد كان ابن تومرت يباشر هذه المهمة خلال رحلته راجعاً إلى المغرب من المشرق⁽²⁾، ثم جعلها أساس دعوته وجوهر فكرته، وكانت فرضاً على كل «موحد» أن يباشرها في كل وقت⁽³⁾.

ولما قامت الدولة كان الخلفاء يعتبرون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من واجباتهم الأساسية. وأول شيء يفعله من يتولى الخلافة كان بيعث رسالة تؤكد هذا المعنى وتحض على فعله وتتوعد من يتركه من الموحدين كافة والطلبة خاصة. وكانوا يتشددون في منع الخمر وقطع الملاهي والمفاسد. كما كانوا يتشددون في القيام بالفروض الدينية من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة⁽⁴⁾.

وأما الحسبة بمعنى الإشراف على السوق من ضبط للتعامل وحرص على سلامة السلع وصحة الموازين والمكاييل ووجوب مراعاة الشرع فيها فقد عرفها الموحدون في المغرب والأندلس بعد فتح مراكش استنتاجاً من تراجم بعض من

(1) أخبار المهدي ص 46-47.

(2) راجع الفصل الثاني ص 36-37.

(3) أنظر الفصل الثاني ص 83.

(4) راجع الفصل الثالث ص 135.

نولوا هذه الخطة⁽¹⁾. وتشير هذه التراجم أن متولي حِسبة السوق يسمى «صاحب السوق» ويكون من ~~الأمراء~~. وربما كان تعيينه من قبل القاضي⁽²⁾. ولصاحب السوق أعوان في الأسواق. يقول المراكشي أن المنصور «كان قد أمر أن يدخل إليه أمناء الأسواق وأشياخ الحضر في كل شهر مرتين يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم (كذا وربما أحكامهم)»⁽³⁾. وليس هناك من المعلومات ما يفسر كلمة «أشياخ الحضر»، وأما الأمناء فمن الراجح أنهم أعوان (صاحب السوق). فقد أمر عبد المؤمن طلبة الولايات في رسالة أن يعينوا أمناء يشرفون على سوق الجوّاري⁽⁴⁾. وفي رسالة أخرى أمر بتعيين أمناء ليشفروا على مراقبة الصلاة بين العامة من الناس وتعليمهم أم الكتاب وسورة من القرآن⁽⁵⁾.

ونص المراكشي ذاته يدل على أمر آخر وهو إشراف الخليفة بنفسه على أعمال حِسبة السوق وهو مظهر آخر من مظاهر الحكم المطلق الذي باشره الخلفاء في دور الازدهار.

ويلاحظ القارئ أننا تجنبنا الاستفادة من كتب الحِسبة التي وصلتنا، لأن هذه الرسائل كتبت قبل الفترة الموحدية بقليل أو على أبعد الفروض بعد قيام الدولة بيسير، فمن هنا لا تفيدنا في تبين موقف الموحدين من حِسبة السوق، فلو وصلتنا رسائل كتبت في العصر الموحد لأمكن المقابلة والاستنتاج. ومن الجائز أن هناك رسائل كانت تتداول بين الناس عن الحِسبة ربما نفس رسائل العصر المرابطي وربما غيرها. يقول المقري فيما نقله عن ابن سعيد المغربي أن لأهل الأندلس «في أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما تتدارس أحكام الفقه لأنها عندهم تدخل في جميع المبتاعات»⁽⁶⁾ وابن سعيد عاش في أواخر

العصر الموحد ولم نجد ما يفيد أن هذه القوانين هي القوانين ذاتها التي كانت سائدة قبل الموحدين.

الشرطة:

عرف الموحدون خطة الشرطة وسمّوا صاحبها «صاحب الشرطة» وقد يسمى في إفريقية «الحاكم»⁽¹⁾ وفي الأندلس «صاحب المدينة» أو «صاحب الليل»⁽²⁾. وأول إشارة إلى صاحب الشرطة في مراكش في المصادر التي بين أيدينا كانت في أيام المنصور⁽³⁾ ويبدو أن صاحب الشرطة أصبح ذا أهمية خاصة في دور الانحلال لما كثرت الفتن والثورات ففي هذا الدور تردد ذكره في المصادر كثيراً⁽⁴⁾. ويقول ابن خلدون أن الشرطة كان لها حظ عظيم عند الموحدين ولم يجعلها الموحدون عامة ولا يليها إلا رجالات الموحدين⁽⁵⁾. ومما يؤكد قوله هذا أن جميع الأخبار عن صاحب الشرطة في مراكش تجعله من الموحدين الذين يتمتعون للقبائل التي قام عليها الأمر في أول العهد. وأما في الولايات فإن الشرطة كانت تابعة للقضاة وكان صاحب الشرطة مسؤولاً عن تتبع الجرائم وإقامة الحدود بعد استيفائها⁽⁶⁾ فهو المنفذ لأحكام الخليفة أو القاضي⁽⁷⁾.

الصلاة:

من خلال تراجم كثير من الرجال الذين تقلّدوا الإمامة والخطبة ومن الإشارات عن المؤذنين وأهل الحزب تبين لنا أن هذه الخطط كانت على حظ عظيم من التنظيم والترتيب في أيام الموحدين فلنلق ضوءاً على كل خطة منها.

(1) العبر ج 1 ص 450.

(2) نفح (ط. الرفاعي) ج 2 ص 102.

(3) المعجب ص 285.

(4) راجع البيان المغرب ج 3 ص 283، 299، 328.

(5) العبر ج 1 ص 450.

(6) المصدر ذاته ج 1 ص 450.

(7) المعجب ص 285، البيان المغرب ج 3 ص 145.

(1) أنظر مثلاً التكملة ج 1 ص 82، الذيل والتكملة ج 4 ص 177-178، ج 5 ص 460.

(2) التشوف ص 90.

(3) المعجب ص 285.

(4) نظم الجمان ص 160.

(5) رسائل موحدية ص 137.

(6) نفح (ط. الرفاعي) ج 2 ص 103.

صاحب الصلاة:

كان متولي هذه الخطبة تابعاً للقاضي ولا يكون إلا من الفقهاء وغالباً ما يتولّاها أحد أهل البلد⁽¹⁾ غير أنه من الجائز أن يتولّاها أحد الغرباء⁽²⁾، وربما ينقل «صاحب الصلاة» من جامع إلى آخر أو يناوبه أحد القضاة وقد يباشر التعليم في جامع ولايته⁽³⁾.

ويبدو أن صاحبي الصلاة في الجامع الأعظم في قرطبة وإشبيلية كان لهما مكانة متميزة⁽⁴⁾. وفي كثير من الحالات كانت الخطبة تجمع لصاحب الصلاة⁽⁵⁾. ولئن كان متولي الصلاة تابعاً للقاضي في الجوامع الكبرى فالراجح أن المساجد الصغرى لم تكن خاضعة للقاضي فقد يتولى مجدّو ومشيدو مثل هذه المساجد الصلاة فيها⁽⁶⁾.

الخطيب:

هناك خطباء في جميع الجوامع والمساجد⁽⁷⁾ بل إن هنالك خطيباً في سجن مراكش⁽⁸⁾. ويقلد القاضي الخطبة لأحد الفقهاء المبرزين⁽⁹⁾. وربما

استتاب الخطيب أحداً فيصبح المستتاب خطيباً بعد وفاة المستتب⁽¹⁾.

وأما في الحضرة فقد وجد إلى جانب خطباء الجوامع خطيب للخلافة⁽²⁾. وربما كان خطيب الخلافة غير واحد في وقت واحد. ولا يتولى هذه الخطبة إلا على طلبة الحضر⁽³⁾. وكانت هذه الخطبة من المناصب الكبرى ويشارك متوليها في سياسة الدولة العليا إذ كان أحد أعضاء مجلس الخاصة⁽⁴⁾ الذي هو أعلى هيئة استشارية عند الموحدين. ويتولى خطيب الخلافة الخطبة والصلاة في الجمع والأعياد بحضرة الخليفة⁽⁵⁾. ومن الأشياء التي تميزت بها دولة الموحدين عن غيرها من الدول أن نص خطبتي الجمعة ثابت لا يتغير، وقد أورد المراكشي نص الخطبتين⁽⁶⁾. ولهذا تسمى الخطبة «المعلومة»⁽⁷⁾. وقد علّق الموحدون أهمية كبرى على منصب خطيب الخلافة لأن الخطابة كانت من وسائلهم التربوية وأدواتهم الإعلامية. وكان متولي الخطبة يخطب في العديد من المناسبات ليركز مفهوم الطاعة في نفوس الموحدين ويؤكد على حق البيعة ولزومها إذا ما جدت⁽⁸⁾ أو في مناسبة شفاء خليفة من مرض⁽⁹⁾ أو في حالة الانتصار على ثائر⁽¹⁰⁾. وفي الخروج إلى الغزو كان يخطب مذكراً بحقوق الله ويشحذ الهمم على القتال⁽¹¹⁾. ويدلنا على ما علقه الموحدون من أهمية تربوية ودعائية للخطابة

(1) المصدر ذاته ج 5 ص 148، 183.

(2) هكذا حقيقته في كل المصادر غير أن ابن عداري في حالة واحدة سماه «خطيب الجماعة».

البيان المغرب ج 3 ص 135.

(3) راجع المن بالإمامة ص 150-420، 524، البيان المغرب ج 3 ص 204.

(4) المعجب ص 258.

(5) المن بالإمامة ص 457، 511، البيان المغرب ج 3 ص 90، 92، 193.

(6) المعجب ص 343-345.

(7) راجع المن بالإمامة ص 457، 511.

(8) المصدر ذاته ص 150.

(9) المصدر ذاته ص 520.

(10) المن بالإمامة ص 524.

(11) المصدر ذاته ص 501.

(1) صلة الصلة ص 140، الذيل والتكملة ج 5 ص 125، 136، 562.

(2) الذيل والتكملة ج 4 ص 56، 125، 136.

(3) الذيل والتكملة ج 5 ص 200، صلة الصلة ص 107.

(4) الذيل والتكملة ج 5 ص 281، 520.

(5) اختصار القدر ص 98، صلة الصلة ص 29، الذيل والتكملة ج 4 ص 72، ج 5 ص

76، 487، 503، 639، 642.

(6) الذيل والتكملة ج 5 ص 152.

(7) برنامج شبوح الرعي ص 147، صلة الصلة ص 14، 51، 140، الذيل والتكملة ج 5

ص 9، 12، 179، عنوان الدراية ص 146، الدياج ص 45.

(8) الذيل والتكملة ج 5 ص 422.

(9) المصدر ذاته ج 4 ص 195، 214-215، ج 5 ص 493.

أن أحد خطباء الخلافة كان يستعمل اللسان البربري ليفهم قبائل الموحدين التي لا تحسن فهم العربية ثم يعقب ذلك بالخطبة العربية⁽¹⁾.

المؤذنون:

في صفة أحوال الموحدين في إقامة الجمعة أيام الناصر قال المراكشي أن الخليفة عندما يدخل الجامع ويؤدي تحية المسجد «يقوم رئيس المؤذنين ومعه العصا التي يتوكأ عليها الخطيب فيقول: (قد فاء الفياء يا سيدنا أمير المؤمنين والحمد لله رب العالمين) يريد بهذا القول استئذانه في صعود الخطيب لمنبر... فإذا جلس الخطيب فوق المنبر أذن ثلاثة من المؤذنين مفترقين، أصواتهم في نهاية الحسن قد انتخبوا لذلك من البلاد، ثم يقوم الخطيب...»⁽²⁾ وهذا النص الذي يكشف عن مهام رئيس المؤذنين يهمننا في أمرين أولاً: وجود رئيس للمؤذنين. ثانياً: اختيار المؤذنين. والأمران يدلان على أن عدد المؤذنين كان كبيراً واختيارهم كان يخضع لفحص وتدقيق مما يؤكد أن هذه الخطة كانت منظمة. والذي يرجح أن العدد كان كبيراً هو ما يرويه صاحب كتاب الأنساب من أن عدداً كبيراً من المؤذنين كان يصحب الخليفة في السفر، وكانوا يقاتلون في صفوف الجيش في أثناء المعارك إلى جانب عملهم كمؤذنين، غير أن الناصر أسقط عنهم حمل السلاح وأوقفهم على الأذان للصلاة في مواقيتها في حالات السفر⁽³⁾.

أهل الحزب:

اهتم الموحدون بالقرآن والحديث اهتماماً كبيراً وكنوا جماعة من خمسين رجلاً سموهم «أهل الحزب»⁽⁴⁾. وهذه الجماعة كانت تلازم قراءة حزب من

(1) أنظر المصدر ذاته ص 420، 501، 524.

(2) المعجب ص 343.

(3) أخبار المهدي ص 47-48.

(4) المصدر ذاته ص 48.

القرآن وشيئاً من الحديث وعقائد ابن تومرت بالغدو والعشي وفي حالتي الإقامة والسفر⁽¹⁾. ويحدثنا المراكشي أن هذه الجماعة كانت من طلبة الموحدين⁽²⁾. وطلبة الموحدين تعني تنظيم الطلبة الذي كُون من أيام ابن تومرت ولا تعني الحفاظ ولا طلبة الحضر، ومما يؤكد هذا الرأي أن المراكشي في روايته يقول أنهم كانوا «يقروون تواليف ابن تومرت في العقائد بلسانهم وباللسان العربي»⁽³⁾.

وقد كان تنظيم الطلبة الأول يضم الموحدين من المصامدة فقط وهناك ما يؤيد هذا القول إذ أن صاحب كتاب الأنساب يقول أن أهل الحزب كانوا «من جميع قبائل الموحدين»⁽⁴⁾ وقبائل الموحدين كان مصطلحاً يطلق على قبائل المصامدة التي «وجدت» في أيام ابن تومرت⁽⁵⁾.

متولي الخزانة العلمية:

من الخطط التي يمكن إلحاقها بالخطط الدينية خطة متولي الخزانة العلمية لأن بني عبد المؤمن كانوا لا يولونها إلا لعلية أهل العلم⁽⁶⁾. وقد تقلد هذه الخطة في خلافة يوسف بن عبد المؤمن أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن الصقر الذي كان قاضياً أيام المرابطين ثم الموحدين. وقد كان جمع الكتب شغله الشاغل⁽⁷⁾. وممن تولّاها ابن شلبون معاصر ابن الأبار فقد قدم مراكش واستعمل على الخزانة العلمية وكان فقيهاً راوية ذا حظ من الأدب وقرض الشعر⁽⁸⁾.

(1) المعجب ص 342.

(2) المعجب ص 342.

(3) المصدر ذاته ص 342.

(4) أخبار المهدي ص 48.

(5) المعجب ص 339.

(6) الإحاطة ج 1 ص 190، الديباج ص 49.

(7) الإحاطة ج 1 ص 190، الديباج ص 49. وقد وهم ابن فرحون في اسم أبي يعقوب وأخطأ

صاحب روض القرطاس في اسم ابن الصقر وجاء عنده ابن الطغر وجعله متولياً للخزائن

وبيوت الأموال (راجع روض القرطاس ص 160).

(8) الدليل والتكملة ج 5 ص 274.

نتائج:

من دراسة الخطط الدينية عند الموحدين تتضح نتيجتان هامتان تؤكدان أن النتائج التي سبق أن اتضح من دراسة النظم الموحدية في الفصول السابقة:

أولاً: إن تركيز الموحدين على القرآن والسنة كمصدرين أساسيين من مصادر الأحكام يدعم ما ذهبنا إليه من أن الحركة الموحدية وإن كانت حركة سياسة ولبست أثواباً مختلفة للوصول إلى غايتها إلا أن جوهرها كان الرجوع إلى الكتاب والسنة.

ثانياً: إن تولية أعداد كبيرة من فقهاء المالكيين في الخطط الدينية يؤكد ما ذهبنا إليه من تغيير عبد المؤمن لمفهوم «التوحيد» من فكرة عقائدية إلى اتجاه إداري. ولولا هذا التحول لما تسنى للخلفاء الموحدين الاستعانة بفقهاء المالكية الذين أقرّوا بسلطة الخلفاء السياسية ولم يظهروا عداً للفكرة التومرتية. ولأنّ توظيف غير الموحدين الأصليين كان في الخطط التي لا يخشى منها على سلطة الموحدين السياسية فلهذا نجدهم لا يولون غير الموحدين الأصليين في الشرطة في مراكش، كما أن الاستعانة بالمالكية في أعلى مناصب القضاء يدل على محاولات توخي الكفاءة في بعض مناصب الدولة.

الفصل السادس النظام العسكري

كان الجيش عماد الثورة الموحدية، ثم تكوّن الأسطول فأصبح الجيش والأسطول أداتي التوسع والقضاء على الثورات الداخلية والتصدي للخطر الخارجي، وعليه فإن مظاهر القوة والضعف في النظم الموحدية خير ما تتجلى في نظام الموحيدين العسكري.

الجيش:

عناصره:

تعددت عناصر الجيش الموحيدي في دور ازدهار الدولة، غير أن الجيش كان قاصراً على قبائل الموحيدين في بداية الأمر، ولكن مع تبدل مفهوم التوحيد دخلت عناصر كثيرة في الجيش الموحيدي. ومن المفيد أن نستعرض كل عنصر من عناصر الجيش ونبين متى دخل في الجيش وما هو الدور الذي قام به.

قبائل الموحيدين:

في حياة ابن تومرت كانت قبائل المصامدة التي «وحدت» تمثل العنصر الأساسي للجيش الموحيدي. وتتكون هذه المجموعة من هرغة وكدميو وكنفيسة وقبائل أهل تينملل وهنتاتة. ومن «وحد» من غير هذه القبائل وكان ذا نبوغ ضم إلى هرغة قبيل المهدي^(١).

(١) راجع أخبار المهدي ص 37-40.

ويبدو أن غير هؤلاء المتميزين قد ضُفوا إلى كدُموية وكُنْفيسة⁽¹⁾. وأضاف عبد المؤمن إلى هذه القبائل هسكورة وصنهاجة وكومية⁽²⁾. والقبيلة الأخيرة زناتية قبيلة عبد المؤمن. ويسمى عبد الواحد المراكشي هذه القبائل جميعها بقبائل الموحدين⁽³⁾. وقد أصاب في هذه التسمية لأن اسم الموحدين أو قبائل الموحدين ظل في تاريخ الدولة العسكري يطلق على هذه القبائل المتميزة بالسبق في الدعوة والفضل في قيام الدولة، والعناصر التي أضيفت إليها في خلافة عبد المؤمن. وظلت كلمة «موحدين» تتردد في الروايات عن العناصر المكونة لكل حملة عسكرية مع حرص المصادر على ذكر العناصر الأخرى دلالة على هذا المعنى الخاص لكلمة «موحدين»⁽⁴⁾.

القبائل البربرية الأخرى:

منذ أن خرج عبد المؤمن في حملته «الطويلة الأعوام» التي انتهت بفتح مراكش بدأت القبائل البربرية تدخل في الدعوة الموحدية. فقد «وحدت» زناتة⁽⁵⁾ ثم مسوفة بعد أن اختلفت مع لمتونة عقب وفاة علي بن يوسف⁽⁶⁾. وقد تكررت الإشارات عن اشتراك القبيلتين في الجيش الموحد⁽⁷⁾. ويبدو أن من «يوحد» من البربر عامة والمرابطين خاصة كان يدخل في عناصر الجيش. وقد استمرت هذه السياسة حتى خلافة الناصر⁽⁸⁾.

(1) راجع «أخبار المهدي» ص 42-43.

(2) راجع الفصل الثاني ص 65-66.

(3) المعجب ص 339.

(4) راجع رسائل موحدية ص 221، 254، المن بالإمامة ص 163، 197، 202، 215، 400، 405، 431، 491، المعجب ص 248، البيان المغرب ج 3 ص 122، 132، روض

القرطاس ص 132، 138، 140.

(5) أخبار المهدي ص 94-95.

(6) البيان المغرب ج 3 ص 13.

(7) المن بالإمامة ص 197، روض 129، 140، 146.

(8) المعجب ص 315.

ولقد وردت مصطلحات مختلفة في المصادر تشير إلى قبائل البربر من غير الموحدين مثل: «القبائل من الرعية»⁽¹⁾ و«القبائل»⁽²⁾، و«قبائل المغرب»⁽³⁾ و«أصناف البربر»⁽⁴⁾.

وتستوقف الدارس لعناصر الجيش الموحد ثلاث مصطلحات يحيط بها الغموض، وقد تكون مرتبطة بالقبائل البربرية من غير الموحدين. والمصطلحات هي: «الحشم» و«الجند» و«عبيد المخزن».

وقد وردت كلمة «الحشم» مرة واحدة. فقد ذكر ابن صاحب الصلاة أن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن خرج لاستقبال عسكر إفريقية وبجاية وتلمسان كما خرج الموحدون «وكذلك سائر الأجناد من الحشم والروم والعبيد»⁽⁵⁾. وقد لا تعني كلمة «الحشم» إلا القبائل البربرية من غير الموحدين ويحدونا إلى هذا القول أن المرابطين كانوا يطلقون على القبائل البربرية من غير المرابطين لفظة «الحشم»⁽⁶⁾. هذا بالإضافة إلى أن الموحدين كانوا يطلقون على المرابطين لفظة «الحشم»⁽⁷⁾ وربما توسع الموحدون في استعمال الكلمة فأطلقوها بعد سقوط دولة المرابطين على القبائل البربرية من غير قبائل الموحدين لا سيما وأن كلمة الحشم قد تعني الأعوان والأنصار من الأهل أو العبيد أو الجيرة⁽⁸⁾. ولكن يبدو أن استعمال الكلمة كان قليلاً فهذا لم ترد كثيراً في المصادر.

وأما الجند فقد انفرد صاحب كتاب الأنساب وعرفهم بأنهم «أهل آغمات»

(1) رسائل موحدية ص 221.

(2) المن بالإمامة ص 197.

(3) روض القرطاس ص 146.

(4) المصدر ذاته ص 140.

(5) المن بالإمامة ص 431.

(6) الحلل الموشية ص 22-21. Hopkins; PP. 74-75. ولتفسير آخر لكلمة «الحشم» عند

المرابطين راجع النظام السياسي ص 150 وما بعدها.

(7) راجع الفصل الأول ص 40.

(8) راجع مادة «حشم» في لسان العرب وتاج العروس.

من الحضرة⁽¹⁾. فكأنه يريد أن يقصر استعمال الكلمة على سكان المدن من المرابطين. ولكن المراكشي يستعمل الكلمة استعمالاً مختلفاً. فقد وردت عنده مرة بمعنى الجند من قبائل الموحدين⁽²⁾، ومرة ثانية بمعنى سائر الجند من غير الموحدين⁽³⁾. والراجح أن «الجند» لا تعني الموحدين لأن روايات «أصناف» الموحدين جعلت الجند صنفًا قائماً بذاته في الوقت الذي ذكرت فيه قبائل الموحدين كأصناف مستقلة⁽⁴⁾. كما أن الكلمة وردت في أحيان كثيرة مضافة إلى عنصر⁽⁵⁾ أو عناصر متعددة⁽⁶⁾ من الجيش لم تكن قبائل الموحدين من بينها. وليس هنالك ما يفيد أن الكلمة كانت قاصرة في الاستعمال على قبائل المرابطين أو البربر عامة.

ومما يتصل بالقبائل البربرية مصطلح «عبيد المخزن»، وأغلب الظن أن هذا المصطلح لم يكن يعني العبيد السودان أو الأعلاج الأوربيين. والذي يدعو إلى مثل هذا الرأي أن صاحب كتاب الأنساب ذكر أن لعبيد المخزن ثمانية أفخاذ منها لمطة وكزولة وأهل مراكش⁽⁷⁾. وهذه مجموعات بربرية كانت مرتبطة بالمرابطين ارتباطاً وثيقاً. وهذه الإشارة تبعث على القول بأن «عبيد المخزن» كانوا عناصر مرابطية وهو أمر غير مستبعد إذ أن هذه الفرقة تكونت في حياة المهدي من عبيد أزليم وتازاكورت⁽⁸⁾، وكلمة عبيد هنا قد لا تعني إلا عبيد الموحدين من المرابطين لأن المهدي جوز للموحدين استرقاق محاربيهم من المسلمين. وربما كان عبيد المخزن بربراً أو سوداناً أو إعلاجاً أو خليطاً من كل

(1) أخبار المهدي ص 47.

(2) المعجب ص 339.

(3) المصدر ذاته ص 341.

(4) راجع الفصل الثاني.

(5) راجع المن بالإمامة ص 148، 193، 197، 405، 491، البيان المغرب ج 3 ص 132.

(6) المن بالإمامة ص 431، البيان المغرب ج 3 ص 26. الحلل الموشية ص 121.

(7) أخبار المهدي ص 46.

(8) أخبار المهدي ص 77.

هذه العناصر ولكنهم فوق كل شيء عناصر مرابطية سابقة⁽¹⁾. ومما يدعم هذا الرأي أن حفصبي تونس ظلوا يطلقون على أهل الأسواق «عبيد المخزن»⁽²⁾. وقد تردد ذكر فرقة «عبيد المخزن» في مختلف أطوار الدولة⁽³⁾.

الأندلسيون:

قبيل فتح مراكش بدأ المنتزون في نواحي الأندلس يدخلون في «التوحيد»، وأقر عبد المؤمن من «يوحد» على إدارة منطقته التي كان يسيطر عليها، واحتفظ كل منتز بجيوشه التي كانت تحت أمرته. ولكن بعد أن ثارت العناصر الأندلسية على الموحدين، أرسل عبد المؤمن عناصر من الموحدين لتقيم في الأندلس⁽⁴⁾. وهذا لا يعني أنه صرف الجنود الأندلسيين عن العمل العسكري فقد تركهم في الجيش ولكن في مراكز ثانوية، وفي كل الحملات العسكرية في الأندلس نجد ذكراً للجند الأندلسيين⁽⁵⁾. ويبدو أن عبد المؤمن أراد الاستفادة منهم في قتال النصارى لأن الأندلسيين أعرف بمنطقتهم.

العرب:

عرف المغرب العرب كجند منذ الفتح الإسلامي، ثم ضعف دورهم. ويبدو أن المرابطين استخدموا عدداً من العرب في جيوشهم⁽⁶⁾، غير أن العرب

(1) أنظر استنتاجاً مخالفاً عند هوبكنز Hopkins; p. 78.

(2) صبح الأعشى ج 6 ص 146.

(3) أخبار المهدي ص 103، البيان المغرب ج 3 ص 24، 386، الحلل الموشية ص 114،

روض القرطاس ص 174.

(4) أخبار المهدي ص 125-127 وفي سنة جبل الفتح ترك جيوشاً موحدية (راجع المعجب ص

224).

(5) المن بالإمامة ص 148، 183، 193، 202، 400، روض القرطاس ص 140، 141 وقد

ظلت الأسر الأندلسية في مدنها في المرتبة الثانية بعد الموحدين حتى انحلال الدولة

وحينئذ ثارت. راجع ما يورده الحميري الروض المعطار ص 118.

(6) نظم الجمان ص 10، الحلل الموشية ص 101.

لم يقوموا بدور عسكري كبير لقلة عددهم⁽¹⁾. ومع الموحدين بدأ العرب يقومون بدور أكبر في الحياة العسكرية والسياسية. وكان هؤلاء العرب من عرب الزحفة الهلالية، فمنذ أن فتح عبد المؤمن منطقة بجاية التي سيطر العرب الهلالية على نواحيها شعر بخطرهم، على الرغم من أنه قد هزمهم عند سطيف (1153/548)، واستقدم عدداً من أشياخهم إلى المغرب⁽²⁾، غير أنه لم يضمهم إلى الجيش الموحي إلا بعد فتح إفريقية (تونس) سنة 1160/555⁽³⁾، مع أنهم خدموا في جيش ولاية بجاية قبل هذا التاريخ⁽⁴⁾.

ما الدوافع الكامنة وراء استقدام عبد المؤمن للعرب من إفريقية إلى المغرب؟ يستطيع المرء أن يجمع دوافع عبد المؤمن في أمرين أساسيين:

أولاً: يبدو أن عبد المؤمن أراد أن يستخدم العرب في تقليص نفوذ أشياخ الموحدين إذ أنه عقب فتح بجاية استفاد بمن استقدم من أشياخ العرب في استخلاف ابنه محمد ونقل الخلافة إلى ملك وراثي⁽⁵⁾.

ثانياً: أراد أن يستفيد من طاقات العرب في قتال الروم في الأندلس⁽⁶⁾ ولا سيما وأن الفكرة قد راودته بعد أن اشتد عدوان النصارى وحلفائهم من المسلمين على ولايات الموحدين الأندلسية⁽⁷⁾. إن توجيه طاقات البدو في الحروب الخارجية يسعف على استتباب الأمن في إفريقية التي طالما عاثوا فيها خراباً ودماراً. وإلى هذا الهدف المزدوج يشير عبد المؤمن في إحدى رسائله إلى طلبة قرطبة حيث بين أنه يرجو للعرب «أن يتلافوا زللهم ويستدركوا خطلهم بغزو في

(1) النظام السياسي ص 155.

(2) الاستقصا ج 2 ص 121.

(3) رسائل موحدية ص 111-112، 119، المن بالإمامة 126-144، المعجب ص 225.

(4) روض القرطاس ص 129.

(5) راجع الفصل الثالث.

(6) الكامل ج 11 ص 246، نهاية الأرب ص 211.

(7) المن بالإمامة ص 134، البيان المغرب ج 3 ص 18.

جزيرة الأندلس - حاطها الله - يكفر خطاياهم ويصلح عملهم والنظر في ذلك متوال، والأخذ فيه متصل»⁽¹⁾.

وفي استنفار عبد المؤمن لعرب إفريقية برهن عبد المؤمن على معرفة تامة بنفسية البدو فقد خاطبهم شعراً، وإلى جانب تذكيرهم بحقوق الجهاد في سبيل الله ركز على ما سينالونه من غنائم ومكاسب مادية، ومما ورد في كتاب استنفارهم:

فما همنا إلا صلاح جميعكم وتسريحكم في ظل أخضر هائل
وتسويغكم نعمة ترف ظلالها عليكم بخير عاجل غير آجل
فلا تتوانوا فالبدار غنيمة وللمدلج الساري صفاء المناهل⁽²⁾

واستجاب لنداء عبد المؤمن الجم الغفير من العرب. ففي عام جبل الفتح رتب بعضهم في نواحي قرطبة وإشبيلية⁽³⁾، ونقل أعداداً إلى المغرب⁽⁴⁾، وفي استعداد لغزو نصارى الأندلس نقل إلى المغرب ألفاً من كل قبيل من قبائل جشم⁽⁵⁾.

وسار يوسف على هدى أبيه مدفوعاً بالدوافع ذاتها⁽⁶⁾، وقد لبّت نداءه قبائل رياح⁽⁷⁾. وأما المنصور فقد استجلب العرب إلى المغرب تغريباً لهم وعقاباً جزاء تعاونهم مع الميورقيين والأغزاز، فأنزل بني هلال في بلاد الهبط وجشم في بلاد تامسنا⁽⁸⁾.

(1) رسائل موحدية ص 111-112.

(2) المعجب ص 225-226.

(3) المصدر ذاته ص 226.

(4) المن بالإمامة ص 173-172.

(5) روض القرطاس ص 130.

(6) رسائل موحدية ص 152-157، المن بالإمامة ص 411-412، البيان المغرب ج 3 ص 76،

113.

(7) البيان المغرب ج 3 ص 114، روض القرطاس ص 139.

(8) روض القرطاس ص 143، العبر ج 6 ص 58، الاستقصا ج 2 ص 168.